الباب الخامس عشرين

تولية الإسكيا إسحق

فلما بلغهم خبرُ وفاته بادروا بالرجوع إلى كاغ قبل مجيء بلمع ، واتفقوا على أخيه إسكيا فولوْهُ السلطنة فى شهر شعبان سادس عشر منه بالتاريخ المذكور وأقام اسماعيل ، فيها سنتين ، وتسعة اشهر وسنة . يوم ولايته سبعة وعشرون سنة .

أما إسحق فكان أجلَّ مَنْ دخل فى تلك السلطنة وأعظمهم خوفاً وهيبة وقتل من الناس أهل الجند خلقاً كثيراً .

وكان من سيرته إذا خال من أحد شيئاً من التعرُّض للسلطنة لا بُدَّ أنْ يقتله أو يُخرجه من أرضه ، هذا دأبه وعاداته فبدخوله السلطنة أرسل زغرانياً واحداً إلى بير ليقتل كرمن فارى عثمان وجعل له جُعلاً ثلاثين بقرة . التى ما ولدة واحدة منهن قط فقتله . ورجع فأعطاه الجُعل كاملاً .

ولَّما خرج إلى وطنه أمر بقتله فقتل ، ثم قتل كرمن فارى همـاد ولـد أرى وجعل على كسر خلفه ، ثم سأل عن سوم كتباك أحيٌّ أم لا ؟ فأخبر أنه حى فأمر بإطلاقه ومجيئه إليه . فلما امتثل بين يديه قال له : مثلك الذى يعرف الخير ويشكره ، هو الذى يستحق أنْ يُقرَّب ويُتخذَ عَضداً ورفيقاً ، أريد أن أردك فى مقامك عزيزاً مُكرّماً ، فقال له : طلبه منى السلطانُ الرشيدُ المباركُ فأجابه فأحرى أنت الذى ليس بشيء . فقتله .

ثم إنه حصل فى قلبه خوفٌ عظيمٌ من هيكى بكر على دود ، فذكر لهنبر كى أنه يأمره بالذهاب معه ، فيقبضه ويجعله فى الحديد ، وحين عزم على المسير قال إسكيا إسحق فى ناديته : يا هيكى أنت مع هنبركى فسكت ولم يُجبه . ثم قال : يا هيكى أنت مع هنبر كى فسكت .

ثم قال : يا بكر على أنت مع هنبركى فأسرع بالوقوف سمعاً وطوعاً الآن ، علمت أن بكر على هو الذى يذهب مع هنبركى ، وأما هيكى فلا يذهب مع هنبركى، فتعجَّب الناسُ من جودة فهمه ومعرفته بالجواب .

فجعل موسى خلفه ، ثم إنه صلَّى عيد الأضحى فى كبر فى آخر الثامنة والأربعين، وفى التاسعة والأربعين غزا إلى كعب ، آخر بلاد سلاطين بندك .

(إصلاحات إسكيا إسحق)

(لجامع جنى)

فلما رجع طرقَ جنى وصلَّى فيها الجمعة ، فلما أراد أنْ يدخل الجامع رأى مزبلة عظيمة جداً قرب الجامع من جهة القبلة . قال : ألقوه برا . وما صلَّى الناسُ الجمعةَ حتى ردمها خُدامه كأنها لم تكن هنالك قط ، لأن حكمه شديد .

فلما فرغوا من صلاة الجمعة تكلم القاضى العباس كب فى بعض المسائل ومحمود بُغيغ جالسٌ حذاء القاضى ، وهو من أكبر شهوده ، فبادر هو بالجواب ، فلما وصل كاغ عن قريب جاءه مرسولُ أهل جنى ينعى القاضى العباس رحمه الله تعالى يستأذنونه فى تولية القاضى ، فقال : أليس هنالك قاض ؟ قالوا : ما نعرفه . قال : يعرف هو نفسه المودب الأكحل الغليظ القصير الذى جاوبنى ساعة أتكلم مع الهالك ، علم هو أنه قاضٍ . ولذلك اجترأ على مُجاوبتى ، وهل يقدر أحدٌ على ذلك من الفقهاء غير القاضى ، اذهبوا فهو قاضيكم من قبل .

وبالغ فرن على كثر فى التعواج له عند رجوعه من غزوة تعب ، حتى بقى يريد منه الفره ليقتله ففطن له إسكيا إسحق ، وجعل يأخذ الحذر منه حتى بلغ مرسى كبر، فطلع تنبكت للسلام على القاضى الفقيه محمود ، فسلَّم عليه ورجع .

فلما بلغ المرسى بادر بالدخول فى القارب ، فلما رآه تعجَّل فى الدّنُو إليه فأمر القدافين أنْ يدفعوا إلى وسط البحر فجاء بالغم حتى دخل البحر إلى ركبتيه فلم يعرف ، فلما أيس منه قال : هكذا كان الأمر فولى بالغيظ الشديد ، ولمَّا بلغ إسكيا مدينة كاغ أرسل لأهل تندرم أنْ يطردوه ، فخرج وحده هارباً إلى أرض الوادى ، فقبضه رجلٌ وباعه .

فقُيّد فى الحديد يسقى الجنان إلى يوم واحد رآه واحدٌ من العرب الذى يأتيه فى بيع الخيل أيام تمرده وطغيانه فحدد النظر منه . فقال : كأنك فرن على كثر فرمى نفسه فى البئر ، وكان فيه حتفه وهو فى أيام تجبُّره يتعدَّى على الأحرار ببيعهم ، فبلغ شكواه

القاضى محمود فزاره يوماً واحداً ، فقال : لِمَ تبيع الأحرار ؟ ألا تخاف أنْ يبيعوك ؟ كاد يتميز من الغيظ من قوْل أبى البركات فتعجَّب به وأنكره ، وقال : كيف أُباع ؟

ولذلك صدَّقَ اللهُ قولَ هذا السيد فيه ، فجعل أخاه داوود كرمن فارى ، ومكث فيها ثماني سنين ، وفى احدى والخمسين ذهب إلى ككركاب اسم مكان فى أرض دند ، وفى الثانى والخمسين أرسل أخاه كرمن فارى داوود إلى ملى ، فهرب منه سلطان ملى ونزل بعسكره فى بلده وتأخر فيه سبعة أيام ، وبرح فى العسكر أن كل منْ يريد أنْ يطير الماء فليفعله فى دار السلطنة ، وفى سابع اليوم امتلأت الدارُ كلها بالغائط مع سَمْتها وعظمتها ، ثم ارتحل راجعاً إلى سغى .

فلما رجع أهل ملى إلى البلد تعجَّبوا ممَّا وجدوه فى دار السلطان ، وتعجَّبوا من كثرة أهل سغى ومن رذيلتهم وسفاهتهم .

وفى الخامس والخمسين تُوفِّىَ شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضى محمود بن عمر ليلة الجمعة السادسة عشر من رمضان ، كما مرَّ رحمه الله تعالى ونفعنا به فى الدارين .

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من شوال تولَّى القضاءَ ابنُه الفقيه القاضى محمد ، وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة ، ومكث فى القضاء سبع عشرة سنة وثلاثة أشهر ، ومات فى الثالثة والسبعين فى صفر طلوع الشمس يوم الأحد الثالث عشر منه عن ثلاث وستين سنة رحمه الله تعالى .

وفى أوائل السادس والخمسين هبَّ إلى كوكيا ، فمرض فيها مرضَ الموت ، ولما اشتد عليه بعث لكرمن فارى أحباؤه سراً فى المجيء فأهمَّه شأن اربند فرم بكر ولد كبر بنت إسكيا الحاج محمد ، لأنه شهر وبهر فى الذكر الجميل ، حتى لا يختار أهل سغى أحداً عنه فى ولاية السلطنة .

فاشتكى به عند رجل عالم بالاستعمال فاستعمل له عليه وأمره أن يحضر خابياً الذى فيه ماء ، فأحضره وعزّم فيه بالعزائم وناداه باسمه ، فأجاب وقال له : اخرج إلىَّ . فخرج شخصٌ من الماء بقدرة الله تعالى على شكله وصفته ، فجعل الحديد فى رجليْه وطعنه بالحربة . وقال له : اذهب فغمص فى الماء .

ثم توجَّه إلى كاغ ، ما وصل إلا وتُوفِّىَ اربند فرم المذكور ، فجاز إلى كوكيا فوصل

قبل وفاة إسكيا إسحق ، فخاصمه هيكى موسى أشد الخصومة ، وقال له : منْ أمرك بهذا ؟ ومنْ شاورتَ عليه ارجع الساعة فرجع ، وعن قريب تُوفى فبعث له فى الرجوع فرجع .

ولما أيس من الحياة اختار أربعين فارساً شجاعاً ، وأمرهم أنْ يوصلوا ابنه عبد الملك أبى كاغ عند الخطيب لدخول الحرمة لما عرف من الإساءة التى فعل لأهل سغى ، ولمَّا عاملهم به عبد الملكُ المذكور من التوقيع والإذلال من تجبُّره وطغيانه ، فوصلوه كما أراد ، وفيهم عثمان درفن بن أبى بكر كرن كمرن بن الأمير إسكيا الحاج محمد .

وقد بعث إليه فى أيام قوته مولاى أحمد الكبير سلطان مراكش أنْ يُسلم له فى معدن تفاز [1] فبعث له فى الجواب أن أحمد الذى سمع ليس هو إياه ، وأن إسحق الذى سمع ليس أنا إياه ، ما زال ما حملت به أمه ثم أرسل ألفين ركاباً من التوارق وأمرهم أن يُغيروا على آخر بلد درعة إلى جهة مراكش بلا إخراج روح أحد ، فيرجعون على إثرهم .

فغاروا على سوق بنى أصبح كيفما قام وثبت ، فأكلوا جميع ما وجدوه فى ذلك السوق من الأموال ، فرحّبوا كما أمرهم وما قتلوا أحداً ، وما ذلك إلا ليرى السلطان أحمد المذكور قوته ، وحسب ما أخذه ظلماً وغباً من تجار تنبكت من الأموال بعد موته ، فكان سبعين ألفاً ذهباً على يد خديمه محمود بزا أخ الأمين يزا ، وهما قيِّنان أصلاً يتعاقب من بين تنبكت وكاغ ذهاباً ورجوعاً ، يقبض من كلٍّ واحد بقدر مقدرته مما تكلم به أحدٌ فى حياته خوفاً من سطوته .

وتُوفِّىَ يوم السبت ، والله أعلم ، الرابع والعشرين من صفر سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وبين موته وموت أبى البركات الفقيه محمود خمسة أشهر وعشرة أيام ، ومكث فى السلطنة تسع سنين وستة أشهر .

---

(١) تفاز : بلد فى وسط الصحراء الكبرى ، تقع بين بلاد المغرب وبلاد السودان . اشتهرت بأنها مصدر أساسى للملح ، وهو أهم السلع فى غرب إفريقيا . واشتهرت بأن مبانيها مبنية من حجارة الملح . انظر أماطير : التأثير العربى الإسلامى فى السودان الغربى فيما بين القرنين الرابع عشر ، والسادس عشر ، دار الرواد ، ليبيا ، ١٩٩٦م . ص١٢٤ .